الفصل الرابع

مكونات الثقافة

الفصل الرابع

مكونات الثقافة

إذا كانت الصفحات الماضية قد تعاملت مع « الثقافة » من حيث جذورها ، ومن حيث نشأتها ، وكذا من حيث معانيها المختلفة، وكذا من حيث خصائصها ، فما ـ يا ترى ـ مركبات تلك الثقافة ..؟ أو بمعنى آخر ما الأجزاء التي تتركب أو تتكون منها الثقافة ..؟ لعل الصفحات القادمة تتناول هذا الجانب بشيئ من التفصيل ، وهي ـ عمومًا ـ تتكون من الآتي :

أولاً : العموميات Universals :

وهي تمثل ذلك القدر المشترك بين أفراد الجماعة، وهو الأكثر أهمية من مكونات الثقافة ، حيث يشتمل على الدين واللغة والعادات والتقاليد والقيم والمعايير التي تحكم تصرفات الأفراد داخل المجتمع، وتأتي أهمية هذه العموميات من كونها هي التي توحد أبناء المجتمع الواحد ، وتؤلف بينهم، وتعطيهم طابعهم الخاص الذي يفرق بينهم وبين غيرهم من المجتمعات أو الشعوب، كما أن هذه العموميات هي التي تعمل على تماسك أفراد المجتمع، وعلى شدة تعاضدهم مع بعضهم البعض ، خاصة في أوقات الشدة والأزمات، أو الحروب بينهم وبين الآخرين، فهنا تبدو قيمة تلك العموميات في ضم أفراد المجتمع مع بعضهم البعض، كما أنها تعمل على تقريب مشاعرهم، وبعث حبهم لبعضهم البعض، كما أنها تجلي حرصهم على الصالح العام لمجتمعهم ، خاصة في أوقات الأزمات والحروب والصراعات ، لأنه من المعروف أن العدوان الخارجي يعمل على توحيد القوى الداخلية للمجتمع.

ودائما ما تلجأ الجماعة إلى هذه العموميات تتعلق بها، بل وتنتصر بها، وكان رسول الله ﷺ ، يطلب من أصحابه أن يكثروا من ذكر الله، سبحانه وتعالى، عند لقاء العدو ، ومعنى ذلك أنه كان يلجأ إلى عنصر « الإيمان» يبثه في نفوس أصحابه حتى يثبتوا في وجه أعداء الإسلام. ومعروف أن الدين في

المجتمع المسلم هو أول أمر في تلك العموميات، ودول اليوم تحاول ، خاصة من خلال وسائل الإعلام والتربية، أن تذكر أبناءها بماضيهم ، وأن تذكرهم بما يجمعهم ويربطهم ويوحدهم أثناء الأزمات والصراعات، وتلك هي صميم العموميات.

كذلك يمكن القول بأن هذه العموميات هي التي تعطي المجتمع لونه الذي يميزه عن غيره من المجتمعات ، أو بعبارة أخرى ، هي التي تشكل شخصيته، حيث أن لكل مجتمع شخصيته التي تميزه ويعرف بها ، تمامًا مثله في ذلك مثل الأفراد، ويستطيع أفراد المجتمع الواحد ـ عن طريق هذه العموميات أن يتعارفوا، بل وأن يتجاذبوا إلى بعضهم البعض، خاصة عند تواجدهم خارج حدود مجتمعاتهم، بحيث يعرفون بعضهم في يسر وسهولة، حتى دون أن يكون بينهم سابق معرفة أو تعارف على المستوى الشخصي.

ثانيًا : الخصوصيات Specialities:

وإذا كانت العموميات تشمل كل أفراد المجتمع بجميع مستوياتهم التعليمية والعلمية والثقافية والاقتصادية، إلا أن الخصوصيات شيئ آخر، إذ تختص بها طوائف معينة من أبناء المجتمع يمتلكون مهاراتها، ويتحكمون في أسرارها ، ويعرفون معرفة اليقين طرق التعامل بها، فهي ـ بذلك ـ وقف عليهم، وحكر خاص بهم، لا يدخل من أبوابها إلا من تأهل لها، وسمحت له قدراته بالمرور من خلال متطلباتها، حيث لها لغتها الخاصة بها، وقواعدها التي ينبغي الالتزام بها، بل وأساليبها في التعامل والتخاطب.

هذا ويقسم البعض هذه الخصوصيات إلى نوعين هما :

أ ـ الخصوصيات المهنية :

وهي التي تستلزم لممارستها خبرات ومهارات فنية ، ومصطلحات سلوكية ، دون اعتبار لأصحاب هذه المهارات من الأفراد ، فهي ليست وقفا عليهم، كما يقول « سرحان » ، بل تسمح بدخول أفراد الفئات الأخرى (كان ينبغي القول : أفراد المجتمع الآخرين) للعمل فيه،

فالعمل الزراعي والصناعي ، والاشتغال بالطب والمحاماة ، وكذا التدريس.. ليس قاصراً على فئة بعينها من الناس، بل هو عمل مسموح به لمن يشاء من أفراد المجتمع (وهنا أيضا نقول : إن المؤلف كان ينبغي أن يقول : : لمن يقدر عليه من أفراد المجتمع).

نخلص من ذلك إلى أن فئات الناس في هذا القسم ليست ثابتة، وأن كل نوعية عمل تخصصية تكسب المشتغلين بها نمط شخصية معينة، ومصطلحات سلوكية تختلف عن مثيلاتها في أنواع الأعمال الأخرى، وبازدياد العلم وتقدمه ، وبتطور الحياة، خاصة في جانبها الصناعي التكنولوجي المتقدم نجد زيادة في تقسيم العمل، وتشعبًا في تخصصاته المتشعبة، ومن ثم فإن هذه التخصصات الفنية تزداد ، وتزداد معها ـ بالتالي ـ خصوصيات الثقافة.[1]

ب ـ الخصوصيات الطبقية :

وهذه الخصوصيات تقتصر على فئات بعينها في المجتمع ، إذ أن في كل مجتمع طبقات راقية (أرستوقراطية)، وطبقات متوسطة، ثم طبقات قاع المجتمع، والتي يطلق عليها البعض طبقات الرعاع أو الدهماء ، « وكل طبقة من هذه الطبقات لها قيمها واتجاهاتها، وكذا مصطلحات سلوكها،كما أن لها آدابها ومعاييرها الخاصة المنظمة لحياتها، والمتحكمة في علاقاتها بغيرها من الطبقات، فالاهتمامات الخاصة بالطبقة الراقية ـ مثلاً ـ تنعكس في اختيارها لأساليب وأدوات وأماكن شغل وقت فراغ أفرادها ، وفي متابعة الموضات في الأزياء وموديلات السيارات، وفي تفضيل أنواع من المأكولات والمشروبات، وفي الالتزام بمراسيم وشكليات حضور الحفلات والسهرات، وغير ذلك مما لا تقدر عليه الطبقات الاجتماعات الأخرى.[2]

---

(١) منير المرسي سرحان : مرجع سابق ، ص ١٤٠.

(٢) المرجع السابق ، ص ص ١٤٠ - ١٤١.

والفرق بين الخصوصيات الطبقية والخصوصيات المهنية يكمن في إمكانية الدخول في هذه الخصوصيات ومعايشتها، فبينما يكون الدخول في الخصوصيات المهنية متاحًا لجميع فئات المجتمع طالما توافرت لديهم الاستعدادات والرغبات والمؤهلات العلمية المناسبة والمطلوبة لذلك، نجد أن ذلك أمر شاق وعسير بالنسبة للدخول في الخصوصيات الطبقية.

وتتسم الخصوصيات الثقافية ـ بنوعيها ـ بأنها ليست قدراً مشتركا بين جميع أفراد المجتمع ، ومع ذلك فإن كل فرد في المجتمع يعرف عنها بقدر ، فالناس يعرفون أهمية الطب في حياتهم ، كما يقدرون عمل الطبيب، ويتفهمون بعض اتجاهاته ومقاصده في علاج مرضاهم، ولكنهم لا يعرفون دقائق عمله المهني والفني، كما أنهم لا يقفون على بلاغته العلمية ، ومصطلحاته التي يستخدمها مع زملاء المهنة ، لأنها قاصرة عليهم بطبيعة الحال.

ثالثًا : المتغيرات Alternatives:

ويطلق عليها البعض مصطلح « البدائل » ، بدلاً من المتغيرات ، وهي لا تنتسب إلى « عموميات الثقافة » بحيث تشيع بين جميع أفراد المجتمع وطوائفه وجماعاته، كما أنها لا تنتسب إلى « الخصوصيات » بحيث تكون قاصرة على فئة بعينها ، أو طائفة من طوائف المجتمع بذاتها، وإنما هي ـ في حقيقة الأمر ـ أمور مستحدثة في حياة المجتمع، وهي تأتيه ـ غالبا ـ من خارج حدوده، نتيجة للاحتكاك المباشر بينه وبين مجتمعات أخرى ذوات ثقافات مختلفة. وفي هذه الأيام يمكننا القول : إنها قد تصل إلى المجتمع بطريق غير مباشر عن طريق البث التليفزيوني المباشر وعن طرق أخرى بطبيعة الحال.

وأهمية هذه المتغيرات أنها تمثل الأطراف التي تنمو الثقافة بواسطتها، أو من خلالها ، فحينما تظهر إحدى هذه المتغيرات فإنها تسبب قلقا في المجتمع، أو على الأقل تسبب ذلك القلق في بعض قطاعاته لأنها جسم غريب يوشك أو يود أن يستقر في صلب المجتمع، وعادة ما تكون هناك مقاومة مبدئية من المجتمع لذلك الجسم الغريب.

ولكن إذا أثبتت المتغيرات الجديدة أنها ذات فائدة واضحة للمجتمع، أو أنها حلت إحدى مشكلاته التي كانت تجابهه فإنها تثبت أقدامها فيه، وإذا كانت فائدتها تعود على طائف معينة من أبناء المجتمع بالتحديد صارت من خصوصيات ذلك المجتمع، أما إذا برهنت على أنها مفيدة ونافعة للمجتمع كله فحينئذ تصبح من عموميات الثقافة فيه، وتدخل في صميم نسيجه ، وتصبح جزءاً أو ركنا ركينا من ثقافته لا يمكن الاستغناء عنها ، لا تنفك عنه ، ولا هو ينفك منها.

ولعل مثال « السيارة » ودخولها إلى مجتمعات الخليج العربي يوضح هذه الفكرة ويجليها ، فلم يكن أفراد تلك المجتمعات يعرفون وسيلة للانتقال بين مدنهم والقرى والهجر سوى السير على الأقدام، أو ركوب الجمال أو غيرها من دواب الحمل ، ولكن حينما دخلت السيارة لأول مرة في حياتهم فمما لا شك فيه أن كثيرين منهم قد استغربوها لأول مرة ، وكثيرين منهم ـ لا شك ـ أجفلوا منها ، وخافوا من المغامرة بركوبها ، بل إن بعضهم ربما يكون قد حذر غيره من إتيان ذلك ، خاصة بعد أن يكونوا قد شاهدوا بعض حوادثها التي راح ضحيتها نفر ممن يعرفون، وربما يكون ذلك قد نقل إليهم سماعًا، أو حتى عن طريق الإشاعات..!!

ولكن .. وبمرور الوقت أثبتت السيارة أنها « عنصر متغير » نافع ، بل شديد النفع، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار المسافات الشاسعة في شبه الجزيرة العربية، وبالتحديد في المملكة العربية السعودية، وإذا أخذنا في الاعتبار كذلك الكم الهائل من المصالح التي بدأت تقضيها السيارة بأشكالها وأنواعها المختلفة، وبالذات بعد أن أنشئت لها شبكات هائلة من الطرق الرائعة، ولذلك فإنه ليس غريبًا الآن أن صار أمام كل بيت في دول الخليج عدد من السيارات يمتلكه أفراد الأسرة الواحدة ، وأصبح هذا المتغير الثقافي الجديد جزءاً من عموميات الثقافة الخليجية يهتم به الكبار والشباب .. بل والصغار على حد سواء ويستوردون منه أحدث الطرز والموديلات.

هذا عن المتغيرات في جانبها المادي، وقد رأينا أنه يدخل إلى ثقافة المجتمع بسرعة بقدر ما يثبت فائدته ومنفعته، ولكن هناك متغيرات معنوية، فلو أن مجموعة من الشباب من أبناء مجتمع ما من مجتمعات الخليج المحافظة، ذهبت للخارج بقصد السياحة ، أو حتى بقصد الدراسة، وعادت معها ببعض الأفكار الإباحية التي يعج بها الغرب أو الشرق وتسمح به المجتمعات هناك، ثم حاول أفراد هذه المجموعة العائدة أن يدخلوها ـ كمتغير ثقافي جديد ـ إلى مجتمعهم المحافظ فإنهم ، دون أدنى شك، سوف يواجهون بالرفض من جميع أفراد المجتمع، أو من النسبة الغالبة منهم على الأقل، وسوف تكون النتيجة هي فشل ذلك المتغير الجديد في غزو المجتمع ، أو في البقاء على أرضه ، ولا يكون المصير إلا أن تذوي وتذبل،.. ومن ثم تموت ويقضى عليها نهائيًا ، ومن هنا يصدق قول « سرحان » : « إن المتغيرات المتصلة بالجوانب المادية في الثقافة يسهل استقرارها نتيجة سرعة تقبلها من أفراد المجتمع، نظراً لفعالية وظيفتها ، وظهور أثرها سريعًا.

بينما نجد العكس في استقرار المتغيرات المتصلة بالجوانب المعنوية في الثقافة كالقيم، والاتجاهات الفكرية، والخلقية، والعادات، والتقاليد الاجتماعية، نظراً لصعوبة تكيف الأفراد معها، واستبدال العلاقات القائمة فعلاً بعلاقات أخرى، وهكذا نجد أن المتغيرات قد تستقر سريعًا، أو قد تبقى مترددة حائرة متنافسة، أو قد تنزوي ليقوم مقامها متغيرات أخرى تمر بنفس الدور.. وهكذا ».[٣]

(٣) المرجع السابق، ص ١٤٤.